تأمّلات في المضامين الفلسفية لكتاب رفيق بوخريص:

«الحياة والديناميكا الحراريّة أو واقع الطاقة المتعدّدة الأشكال وأقنعتها»

عزالدين العامري(*)

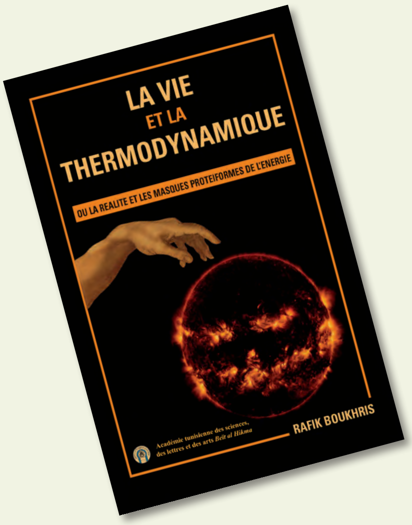

ما الجدوى من الانشغال بالأسئلة الكوسمولوجيّة؟ وما الغاية القصوى من الفلسفة والعلم؟ ولماذا ترتهن رحلة اكتشاف الحقيقة بقيم التواضع العلمي؟ وكيف تتجلى العلاقة الحميمة بين أشكال المعرفة والفلسفة؟ ولماذا يعتبر علم الأعصاب مواصلة جزئيّة لفلسفة الأمس، وواسطة عقلانيّة للوعي بحقيقة الوجود؟ وهل يمكن اختزال أبرز عوائق التقدّم العلمي والفكر الحر؟

يطرح الدكتور رفيق بوخريص هذه الأسئلة العويصة التي تحتمل الكثير من الأجوبة والعديد من التأويلات في كتابه «الحياة والديناميكا الحراريّة أو واقع الطاقة المتعدّدة الأشكال وأقنعتها» الصادر باللغة الفرنسيّة:

La vie et la thermodynamique ou la réalité et les masques protéiformes de l'énergie

ضمن منشورات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة» سنة 2022، ثمّ نشر المجمع نسخته المعرّبة في السنة الموالية.

ويتنزّل الكتاب في نظر معرّبه الدكتور عبد المجيد الشرفي في سياق المؤلّفات التي تتخطى مضامينها المختصين لأنّ «المعتني بالقضايا المعرفيّة التي يواجهها في راهنه

(*) كاتب وإعلامي.

يتحتّم عليه الاهتمام بالنظريات المتعلّقة بالقوانين التي يسير عليها الكون وبنشأته ومصيره ومنزلة الإنسان فيه»[2].

فالتخصّص الذي أملته الثورات العلميّة المتتاليّة آليّة أساسيّة من آليات النجاعة المعرفيّة وفقا للكثير من المقاربات الإبستيمولوجيّة. لكن منطق الاختصاص لا يبرّر لأيّ مهتمّ بالشأن المعرفي الجهل بما يحدث في المجالات الأخرى، وفي المناهج العلميّة المتجدّدة باستمرار، لأنّ الإنتاج الفكري التائق إلى الحدّ الأدنى من الموضوعيّة ملزم بمواكبة هذه التحوّلات، وبالاطلاع على المستجدات المعرفيّة الكونيّة من أجل توظيف الإرث الفكري الإنساني في مسيرة فهم ما يحدث ومراجعة ما يجب مراجعته. فحقيقة اليوم قد تكون مخالفة لحقيقة الماضي، وليست بالضرورة مطابقة لاكتشافات المستقبل.

ومن الحكمة وضع جميع المعارف موضع تساؤل، لأنّ تاريخها كما يعرّفه الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار Gaston Bachelard المهتم بتكوين العقل العلمي وبالعقلانيّة التطبيقيّة هو «تاريخ تصحيح الأخطاء» عبر القطيعة الإبستيمولوجيّة الاتصاليّة، بمعنى التصحيح المتواصل الذي يمليه منطق التطوّر التدريجي. فكلّما تطوّرت العلوم الرياضيّة مثلا تأثّرت جميع المعارف المستخدمة لمسلّمات ومعادلات علم الرياضيات. وحينما يجدّد علم الفيزياء نفسه ترغم الحقول المعرفيّة المرتبطة بالمفاهيم الفيزيائيّة على إعادة النظر في حقائقها. وكذلك الشأن بالنسبة إلى العلوم الإنسانيّة، فعندما تتطوّر مقاربات علم النفس يؤثّر ذلك في الأطروحات السوسيولوجيّة والأنثروبولجيّة وحفريات المؤرّخين، وحينما يكتشف أيّ علم من علوم الإنسان حقائق جديدة تجبر العلوم الأخرى المهتمة بالنسيج الإنساني على تجديد نفسها. بالمعنى الوجيز لا يمكن لأيّ جنس معرفي أن يكون ضفّة معزولة عمّا يحدث حولها.

وفي هذا الإطار يؤكّد الدكتور رفيق بوخريص على الارتباط الوثيق بين جميع الإنتاجات الفكرية، من أجل الدربة على فهم معنى الحياة ومنزلة الإنسان في الكوسموس Cosmos. فالبحوث الفيزيائيّة في نظره تمثّل بوّابة لاقتحام ضفّة معنى الحياة، واكتشاف أسرار التجربة الوجوديّة. لنستشف ممّا تقدّم كيف تشكّل كلّ إجابة فيزيائية أو تساؤل فيزيائيّ قضيّة فلسفيّة تقتضي التأمّل الأنطولوجي والكوسمولوجي، بمعنى تتجدّد الأسئلة الوجوديّة حينما تتجدّد اكتشافات ونتائج البحوث العلميّة. ومن الطبيعي أن تملي هذه المستجدات المعرفية تحوّلات في طبيعة تأمّلاتنا الأنطولوجية، وفي تجاربنا الوجوديّة اليومية، وفي فهمنا لنسيج معيشنا، وفي طبيعة استيعابنا للكوسموس. وعليه نكون ملزمين على دوام بإعادة النظر في الكثير من الحقائق والمفاهيم. ولن يسلّم بخلاف ما تقدّم إلاّ الفكر الجامد، والمنطق المتحجّر بسبب نزعته الوثوقيّة (esprit dogmatique)، وأوهامه المكبّلة لإرادة البحث ولروح التساؤل. وهنا تحديدا تتجلى مسافة التباعد بين الوعي العلمي المفتوح، الذي يفكّر، ثمّ يفكّر في مدى وجاهة فكره باطّراد، واضعا جميع قناعاته، وكافّة قيمه، وكلّ مفاهيمه محلّ تساؤل وفقا للحسّ الإشكاليّ، بما في ذلك ما يصنّفه البعض ضمن البديهيات، والوعي الأسطوري المغلق الذي يفكّر مرة واحدة وللأبد. بل هو لا يفكّر مسلّما نفسه بكلّ طاعة ووداعة لمن يفكّر له، لأنّ كسله الذهني والسيكولوجي يعادي عناء التفكير، ويخجل من اقتسام لحظة التأمّل مع سادته وأوصيائه، فلن يجرؤ على استعادة أحكامهم، وقيمهم، وشعاراتهم، ومفاهيمهم،

2 -: تعريب الدكتور عبد المجيد الشرفي ص9 من الكتاب

وأطروحاتهم، ومقدّساتهم للحساب الخاص، ولو سعياً إلى مجرّد إبداء الرأي، أو طرح الأسئلة حول ما يحدث حوله، وإن كان في علاقة بوجوده الحميمي جدّا لأنّ صنّاع قراره ومصيره تكفّلوا بذلك، وهو في غاية التنعّم بهذا المعيش الوجودي الملغي لكيانه.

كذا هو الاغتراب (l'aliénation)، الذي يفكّك أسبابه وطبيعته ونتائجه الدكتور رفيق بوخريص في مؤلّفه عبر التمييز بين «الحياة البيولوجيّة» المماثلة للحياة الحيوانيّة «وسرّ الحياة»، موظّفا الكثير من المرجعيات الفلسفيّة المهتمّة بمنزلة فهم قضايا الوجود ومعنى الحياة وأسرار الكون. فالغاية القصوى بالنسبة إليه طرح الأسئلة والتوق إلى الفهم، إذ يقول في هذا الصدد: «والغاية الكبرى للفلسفة وللعلم هي الفهم، والفهم خصوصا. وهدفهما البعيد هو محاولة اختراق الطبيعة والقوانين الفيزيائيّة لكون غير واع في الظاهر، والقوانين البيولوجيّة التي يخضع لها الحيّ. وتكمّل تلك الغايات مقاربة في نظريّة المعرفة وامتدادها إلى إمكانيّة (أو عدم إمكانيّة) الوصول إلى معرفة ما يحيط بنا»[3] فلن يدرك المرء جوهر منزلته الوجوديّة في نظره إلاّ عبر جهود الفهم، معتمدا في هذا المجال تأريخا معرفيّا مفاده سعي جل الفلاسفة والعلماء إلى إثارة الأسئلة اللامتناهيّة منذ الحضارات القديمة. بل إنّ الأساطير القديمة كانت مفعمة بهوس المعرفة المتمثّل في ضروب الأسئلة والدهشة والشك، وهذا ما يختزله لوكراس Lucrèce في قوله: «ذاك الرعب وتلك الظلمات التي للنفس، ينبغي تبديدها. لا الشمس ولا ضوء النهار قادران على اختراقها، بل يقدر على ذلك البصر وتفسير الطبيعة. ومبدؤها هو ذا، وسيكون لنا بمثابة التصدير. لا شيء يولد من لا شيء... ما إن نرى أن لا شيء

3 – ص 15من الكتاب

ينشأ من لا شيء حتى ندرك موضوع بحثنا إدراكا أفضل»[4]

ومن البديهي جدّا أن يؤكّد هذا القول نزوع الفلاسفة والعلماء منذ الحضارات القديمة نحو التفسير السببي للظواهر والقضايا المطروحة. أليست عبارة «لا شيء ينشأ من لا شيء» داحضة للتفسير الخرافي والفهم السطحي، والتأويلات الميتافيزيقيّة لظواهر قابلة للتفسير السببي! فهذه المقولة تعبّر عنها الأطروحات الفلسفيّة والمقاربات العلمية بمبدأ السببيّة أو العليّة، الذي بواسطته يمكن تفسير الظواهر إن كانت طبيعيّة أو اجتماعيّة أو سياسية. وفي هذا السياق يعرّف الفيلسوف الإغريقي أرسطو العلم على أنّه معرفة الأسباب، وكذلك الشأن بالنسبة إلى بعض الفلسفات الوسيطة مثل الرشديّة (نسبة إلى الفيلسوف ابن رشد) التي تعتبر مبدأ العليّة شرطا أساسيّا لفهم وتفسير الظواهر للقطع مع التفكير المتهافت، مستخدمة أساليب «الاستدلال العلي» و«الاستنتاج العلي» و«الحجاج العلي». بالمعنى الوجيز إنّها النزعة التفسيرية المميّزة لخطاب الفلاسفة وتحليل العلماء، تلك التي يدعو إليها الدكتور رفيق بوخريص في كتاب غنيّ «بمادة غزيرة للتفكير والتأمّل والتدبّر»[5] كما يقول المعرّب في خاتمة تقديمه. ويمثّل هذا الفضول المعرفي وفقا للكاتب قاسما مشتركا بين التأمّلات الفلسفيّة والبحوث العلميّة لأنّ «الغاية الكبرى للفلسفة وللعلم هي الفهم، والفهم خصوصا. وهدفهما البعيد هو محاولة اختراق الطبيعة والقوانين الفيزيائيّة لكون غير واع في الظاهر، والقوانين البيولوجيّة التي يخضع لها الكائن الحيّ. وتكمّل تلك الغايات مقاربة في نظريّة المعرفة وامتدادها إلى إمكانية (أو عدم إمكانية) الوصول إلى معرفة حقيقة ما

4 – ص 16 من الكتاب

5 – ص 12 من الكتاب

يحيط بنا»[6] فالمطلوب من الوعي الإنساني «اختراق الطبيعة» بدل خشيتها، ومعرفة «القوانين البيولوجيّة» للتحكّم فيها، والإلمام بما «يحيط به» لتحقيق سيادته. ألم يؤكّد ديكارت Descartes منذ القرن السابع عشر على أنّ «الإنسان سيّد للطبيعة ومالك لها» عبر العلم وسيادة الفكر العقلاني! لذلك جعل الفلاسفة والعلماء من «معضلة البشر» إشكاليّتهم المركزيّة في مشاريعهم المعرفيّة منذ الحضارات القديمة، بل إنّ العديد من الأساطير القديمة كانت هوسا معرفيا.

وفي هذا المجال يذكّر رفيق بوخريص بأسطورة بروميثيوس Prométhée التي تمثّل حسب مقاربته ثورة ضد الآلهة من أجل المطلب المعرفي. والذي يقتضي في نظره تسلّح الذات العارفة بقيم التواضع العلمي، فما هي أبرز مظاهر هذه الإيتيقا Éthique المعرفية؟

يتضمّن الكتاب أجوبة عميقة ودقيقة تبرز الرهانات المعرفية للتواضع، إذ يقول الكاتب في هذا الصدد: «يجب أن نتحلى في محاولاتنا للفهم بكثير من التواضع حتى نتخلّص من حمل المركزية الإنسانية البالغ الثقل، وألاّ نعتبر البشر موضوع الكون المركزيّ. فقد حقّق الذكاء البيولوجي لدى الحيّ إنجازات فذّة عديدة لسنا قادرين بعد على فهمها. ويوصينا كثير من الباحثين بأن لا نكون مغرورين»[7]. فالتواضع وفقا لأطروحته ليس مطلبًا أخلاقيا، بقدر ما هو قيمة معرفيّة قصوى، تحتّمها رحلة اكتشاف العالم، وتمليها مسيرة اقتحام حقيقة الذات. وممّا يؤكّد إيمانه القطعي بالتواضع العلمي عدم استخدامه في هذا السياق عبارة تفسير العالم، إذ استخدم مصطلح «محاولات الفهم» لأنّه حفيد الفلاسفة والعلماء المؤمنين بالمنزلة المعرفية لدربة الفهم، والمشدّدين على أنّ «الأسئلة أهمّ من الأجوبة» حسب عبارة الفيلسوف والطبيب النفسي الألماني كارل ياسبرس. Karl Jaspers. فمن الطبيعي أن تكون عبارة محاولة الفهم أكثر صوابا في رحاب المعرفة باعتبارها مسلّمة بالنسبية، لذلك يميل لوغوس Logos الفلاسفة إلى استعمالها بانتظام، على خلاف المدّعين امتلاك اليقين المتمسكين بهواجس تفسيرية موهمة بإدراك الحقيقة المطلقة. وأدّت هذه النزعة التفسيرية على نحو قطعي إلى ظهور تيارات آمنت «بمركزية الذات العارفة» وهو ما ترفضه عديد المدارس الفكرية والدراسات التفكيكية والنقدية، مزعزعة هذا التورّم المعرفي.

ويتنزّل كتاب بوخريص في هذا التوجّه التسيبي (la relativité)، إذ تدعو مضامينه إلى ضرورة التعامل بحذر مع معارفنا كي نواصل مسيرة مطاردة الحقيقة تجنّبا لفخاخ الفكر اليقيني الذي تكرّسه تقاليد الحسم القطعي في القضايا المطروحة. وكم هي كثيرة النتائج، والمسلّمات، والنظريات، والمناهج التي تتجدّد يوميا! وكم هي شاسعة المسافة بين العقول النائمة في كهوف المطلق، والعقول اليقظة بفضل قلق أسئلتها! وللتأكيد على سذاجة المهووسين بالمنطق القطعي انطلق الدكتور رفيق بوخريص من تحوّلات نوعية في الكثير من الأجناس العلمية، مبيّنا كيف تثق الإنسانية في نظريات ومسلّمات ثمّ يتخطاها العلم اللاحق أو يعدّلها، وفي الحدّ الأدنى يثريها بمفاهيم أكثر نجاعة. فمركزية الأرض مثلاً «تعيّن انتظار القرنين السادس عشر والسابع عشر لكي يزيل كوبرنيك Copernic (1473 – 1543) الأرض عن عرشها باعتبارها مركز الكون ويعطيها وضعها الحقيقي الهامشي جدا. وأكمل كيبلر Kepler (1571 – 1630)

6 – ص15 من الكتاب

7 – ص18 من الكتاب

وغاليلي Galilée (1564 – 1642) تحقيق الثورة الكوبرنيكية بصفة نهائية»[8]

فإن كانت نتائج العلوم محلّ نقاش، كيف تدّعي الحقول المعرفية الأخرى وجاهتها المطلقة؟ وإن كانت مسيرة البحوث المعرفية مفتوحة بانتظام، لماذا نصادر من أنفسنا حقّنا في ممارسة فضولنا المعرفي؟ ألم يدعنا آينشتاين Einstein إلى أن نظلّ فضوليين أمام أسرار العالم! وتجسّدت هذه الدعوة بوضوح في قوله: « لا ينبغي أن تشيخ مهما كانت مدّة حياتك. لا تنفكّ على أن تسلك سلوك الأطفال الفضوليين أمام السرّ الكبير الذي ولدنا في رحمه»[9] فالشغف الأساسي للذات البشرية كامن في سعيه الدائم إلى طرح الأسئلة وتجديد النظر في المعادلات والحقائق لأنّ «المعرفة محدودة، والخيال يحضن العالم»[10] على حدّ عبارته. ومن الطبيعي جدا ألاّ تعني محدودية المعرفة القصور، بل تترجم نسبية كافّة الحقائق في ظلّ مواطن الإبهام وتعدّد الأبعاد لجلّ القضايا المطروحة. فكلّما حسمت معارفنا قضايانا، انبرت إشكالات جديدة، ومتى يفيض العقل العلمي بجديد اكتشافاته، تطفو أسئلة كانت مخفية. وفي هذا الإطار يقول الكاتب: «كنّا منذ قرن نجهل تقريباً كلّ شيء عن الفضاء وعن الكون. ونعرف الآن... أنّ كلّ شيء حركة، ومجرّتنا تتحرّك في الفضاء بسرعة 600 كلم في الثانية، وشمسنا في حركة داخل المجرّة بسرعة متوسّطة بأكثر قليلا من 200 كلم في الثانية. وتدور الأرض حول الشمس بسرعة متوسّطة ب30 كلم في الثانية وتدور حول نفسها بسرعة أقل بقليل من 500 متر في الثانية»[11] مؤكّدا عبر هذه الاكتشافات التصحيح المستمر للقوانين العلميّة. فما كانت تفسّره العقول الكلاسيكية بتأويلات ميتافيزيقية، أخضعته مخابر العلم لإرادتها المتجدّدة عبر التراكم. وعلى الرغم من القطيعة التي أحدثها العلم الحديث مع العلوم الكلاسيكيّة، إلاّ أنّ المتأمّل في تاريخ البحث العلمي يدرك استحالة الإقرار ببلوغ الحقيقة القطعية. وفي هذا الصدد ينطلق المؤلّف من حقول علمية مختلفة تؤكّد قاعدة التجاوز، وتجاوز المتجاوز، ففي مجال الفيزياء مثلا يشير إلى أنّ «أوّل تغيير أدخله أينشتاين هو تغيير النسبيّة الخاصّة التي تتعلّق بحركة الأجرام ذات السرعة المتّجهة (التي تقترب من سرعة الضوء) التي لا تنطبق عليها قوانين الميكانيكا النيوتنيّة»[12] وما أكّده أينشتاين، طوّره العلم اللاحق، ممّا يؤكّد قاعدة تجدّد الحقيقة، وإن كنّا في مجال ما يسمى بالعلوم التجريبية والصحيحة التي أضحت احتماليّة في الكثير من مضامينها. وعليه يكون التواضع بالمعنى العلمي حتميّة أملاها مفهوم النسبية وثورة الاحتماليّة (la probabilité)، إذ أصبح الحقل المعرفي حقيقة في انتظار من ينفيها أو يطوّرها، وفي الحدّ الأدنى تكون معرفة أولية في انتظار ما تمليه اكتشافات علمائها وما تحتّمه مستجدات الحقول المعرفية الأخرى.

لذلك يقول فيلسوف العقلانية العلمية كارل بوبر Karl Popper: «لا وجود لكتاب يمكن الفراغ منه. وبينما نشقى في كتابته فإنّنا نتعلّم ما فيه الكفاية لكي نجده غير ناضج في الوقت ذاته الذي نستعدّ فيه لتركه»[13] مزعزعًا بذلك عرش اليقين، لأنّه خبر جيّدا الطبيعة المفتوحة للعقلانية العلمية، تلك التي تراهن على تاريخيّة الفعل المعرفي بوصفه متحوّلا وفقا لتحوّلات سياقاته الموضوعية.

---

8 – ص 19 من الكتاب

9 – ص 29من الكتاب

10 – نفس الصفحة

11 – نفس الصفحة

12 – ص 31 من الكتاب

13 – ص 317 من الكتاب

باختزال شديد، تؤكّد جلّ الدراسات الإبستيمولوجية على الارتباط الوثيق بين المنطق الفلسفي وجميع الإنتاجات الفكرية. فالمعرفيّ مجدّد لنفسه عبر الحس الإشكالي الفلسفي وهو ما يتمسّك به المؤلّف في كافّة فصول الكتاب، شعاراته في ذلك «الفلسفة هي الرغبة في معرفة الأشياء» و«الشغف المعرفي» وتعطّش البشر للفهم» وسؤال «لماذا نحن هنا؟ ومن أين أتينا؟» و«بداية الفلسفة هي علم الطبيعة..هي العلم ذاته» إنّها شعارات فلسفية بامتياز باعتبارها حائرة ومثيرة لقلق فلسفيّ، من رحمه يولد الفضول المعرفي. بالمعنى الوجيز لا يمكن في اعتقاده أن تواصل سفن المعرفة رحلاتها الاستكشافيّة إن لم تكن شراعها فلسفيّة. فعلم الأعصاب وفقا لمقاربته «مواصلة جزئيّة لفلسفة الأمس» وهو كما يقول: «الغصن العلمي الذي يسمح بتجميع رصد العلم وحدس الفلسفة، دون أن يكون حبيس الأشكال الآلية للعلم، والضياع اللاعقلاني أحياناً للفلسفة»[14]. وهو حسب مقاربته واسطة عقلانية وفعّالة لفهم العالم وظّفت أسئلة الفلاسفة وحيرة تساؤلاتها من أجل وضع الظواهر فوق طاولة التشريح العلمي.

صفوة القول تعدّ مغامرة الفلاسفة المتمثّلة في طرح الأسئلة وفقا للكاتب حاضنة أساسية لتطور البحوث العلمية لأنّ الفكر المستبد والمتحجّر رافض بطبعه لهذه الطاولة التشريحية على امتداد الفترات التاريخية المتتالية. ومن أبرز تلك الأفكار المستبدّة المؤسّسات التي نصّبت نفسها ممثّلة للدين، موظّفة المقدّس لحسابها الخاص، ولحلفائها من السياسيين، ولمن تنسجم مصالحهم مع تلك السلط الدينية، وفي هذا المجال يذكّر الكاتب بعديد الانتهاكات التي استهدفت الفلاسفة والعلماء باسم الدين منذ العصور القديمة. ويقول في هذا المجال: «وقد صاحبت التقدّم العلمي على الدوام (منذ العصور القديمة) معارضة عنيفة من قبل رجال الدين ومن كل الأديان»[15]، مذكّرًا بالكثير من الجرائم التي ارتكبتها فئات ناطقة باسم المقدّس على غرار «تعليق عالم الرياضيات الإيطالي جيور دانو برينو Giordano Bruno عاريا ورأسه إلى الأسفل ثمّ حرقه على المحرقة»[16]. وكذلك الشأن بالنسبة إلى عديد الفلاسفة والعلماء من سياقات تاريخية وثقافية مختلفة. وكان الهدف من هذه الجرائم والانتهاكات القضاء على حريّة التفكير الحرّ وجرأة البحوث العلمية، ودفع هذا التنكيل بالعلماء وبالمفكرين عبر السجون والتعذيب والخنق وقطع الرؤوس إلى تنكّر بعضهم لآرائهم وهروب البعض الآخر. ومن الطبيعي جدّا أن تتحالف كل القوى المعادية للفكر الحر ضدّ تأمّلات الفلاسفة ومخابر العلوم. وفي المقابل يشكّل لوغوس Logos الحكماء والعلماء تحالفاً مضادّا لأنّ القاسم المشترك بين الخطاب الفلسفي والمنطق العلمي يتمثّل أساسا في قيم التفكير الحر، فكلّما طرحت الفلسفة أسئلة جديدة اتسعت آفاق البحث العلمي، وحينما تتطوّر المناهج العلمية تنبثق تيارات فلسفية جديدة.

وعليه تكون علاقة الفلسفة بالعلم حميمة كما وصفها الأكاديمي رفيق بوخريص إلى حدّ صعوبة تشخيص مواطن التمييز بينهما، وتسلّم جلّ الدراسات الإبستيمولوجية المعاصرة بهذا الارتباط العضوي لأنّ المنطق الفلسفي علميّ في جوهره، والمبحث العلمي فلسفيّ في عمقه بوصفه تساؤليّا بالضرورة.

14 – ص 17 من الكتاب

15 – ص19 من الكتاب

16 – نفس الصفحة